

الفصل السادس

خصائص الشعر الجاهلي

١

نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لخصائصه بتقاليد الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصيغات المحكمة ، وهي تقاليد تلتق ستاراً صفيحاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعمد فصلاً^(١) تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية ، وكان الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طوأم الزمان . وفي ديوان امرئ القيس^(٢) .

عُوجا على الطلل المُحيل لأننا
نبكى الديار كما بكى ابن خِدامِ
ولا نعرف من أمر ابن خِدام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه
أول من بكى الديار ووقف في الأطلال .

وتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخبيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة في

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع) ص ١١٤ وعوجاً : اعطفا . المحيل : الذي دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون في تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاءً وفخرًا أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها ، فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنهى به من روى .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها ، وحقاً توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدی (١) :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطَيْبَاتُ فَالذَّنُوبُ

فهي من مخلَع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها (٢) :

عَيْنَاكَ دَمَعُهُمَا سِجَالٌ كَأَنَّ شَأْنِيهِمَا أَوْشَالٌ

ومثلهما في هذا الاضطراب قصيدة المُرْقَش الأكبر (٣) :

هَلْ بِالْدِيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلَمٌ

فهي من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

مَا ذَنْبُنَا فِي أَنْ غَزَا مَلِكٌ مِنْ آلِ جَفْنَةَ حَازِمٌ مُرْغَمٌ

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادي (٤) :

تَعْرِفُ أَمْسٍ مِنْ لَمِيسَ الطَّلَلِ مِثْلَ الْكِتَابِ الدَّارِسِ الْأَحْوَلِ

بحرى الدمع . أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .
(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .
(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٣/٢ .
الأحوال : الذى أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

(١) انظر القصيدة في المعلقات العشر وفي ديوان عبيد . وملحوب والقطيبات والذنوب : أسماء مواضع .
(٢) الديوان ص ١٨٩ بحال : جمع سجل أى صب بعد صب . شأنهما : مثنى شأن وهو

فهي من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أَنِعْمُ صَبَاحًا عَلَّقَمَ بِنَ عَدِيٍّ أَثْوَيْتَ الْيَوْمَ أَمْ تَرَحَّلُ
فإنه من وزن المديد . ويمائل هذه القصيدة في اختلال الوزن قصيدته (١) :

قَدْحَانَ أَنْ تَصْحُوَ أَوْ تُقْصِرُ وَقَدْ أَتَى لِمَا عَهَدْتَ عَصْرُ
ومن هذا الباب نونية سُلَيْمَى بن ربيعة التي أنشدها أبو تمام في الحماسة (٢) :

إِنْ شِوَاءٌ وَنَشْوَةٌ وَخَبَبَ الْبِزَالِ الْأَمُونِ

فقد لاحظ التبريزي والمرزوقي أنها خارجة عن العروض التي وضعها الخليل . واضطراب هذه القصائد في أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدي الرواة لم تعبت بها . ومعروف أن الزحافات تكثر في الشعر الجاهلي ، بل في الشعر العربي بعامه ، وما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروي في القصيدة كقول امرئ القيس في معلقته يصف جبل أبان :

كَأَنَّ أَبَانَ فِي أَفَانِينَ وَذَقِهِ كَبِيرٌ أَنَانِسٌ فِي بِيَجَادٍ مَزْمَلٌ (٣)

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها . وفي رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلي بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته في الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية في الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رويت عنهم تلك القصائد المضطربة في وزنها روي عنهم قصائد كثيرة مستقيمة في وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتي شذوذاً وفي الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربي ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطباً بالخداء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبي العلاء ص ١٣١ . البازل : الناقة المسنة . الأمون : الموثقة الخلق .
(٢) انظر التبريزي على الحماسة ٨٣/٣ . (٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر . والمرزوقي رقم ٤٠٨ . والحبيب : ضرب من السير .
البيجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

في أثناء سيرها وسرّآها في الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى^(١) ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون في الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون في الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظمهم في الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شيء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقيقته الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقاها منذ أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادي . ولم تكن تختص بهذا الشعر في الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندي وعدى بن رَعْلَاء الغساني^(٢) والحارث بن وَعْلة الجرمي القضاعي^(٣) ومالك بن حَرِيم الهَمْداني^(٤) وعبد يغوث الحارثي التَجْراني^(٥) والشَّنْفَرِي الأزدي^(٦) وعمرو بن معد يكرب المَدْحَجِي^(٧) ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعه فأكثر من أن نسبيهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين في المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حيثئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام في طبقاته أربعين من فحولهم وفحول الخنصرمين وقد جعلهم في عشر طبقات وجعل في كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

- (١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص ٥١ .
 (٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٠ .
 (٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٥٥ .
 (٤) الأصمعيات ص ٥٦ .
 (٥) المفضليات ص ١٠٨ .
 (٦) المفضليات ص ١٠٨ .
 (٧) الأصمعيات في مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المراثي كما أضاف تسعة في مكة وخمسة في المدينة وخمسة في الطائف وثلاثة في البحرين ، وعدّ لليهود ثمانية . ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوي والحضرى كما يجد بين البَدُوّ واليمنى والرّبعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج في الأغاني لكثيرين منهم ، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّمهم الذين دوّت شهرتهم ، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم ، يعدون بالآلاف على نحو ما يصور لنا ذلك المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم ، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقيب عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (١) . ومن يقرأ في كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً في ديوان قبيلته (٢) . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الرّبعية والقحطانية ، وأقرأ في الأغاني والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرة الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثرة يؤيدها تاريخها في الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت في العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت في مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت في جمهورها مضرية بينما كانت تلك في معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الرّبعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فكفة كانت قليلة الشعر (٣) ، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة (٤) . ووقف الجاحظ في حيوانه عند جانب

١٨٧ ، ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(١) انظر مقدمة لكتابه الشعر والشعراء .

(طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٢٣ ،

٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،

من حظوظ القبائل وتفاوتها في ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكثرة أكلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إختوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف "سكان الطائف" أهل دارناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولم في الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان في ولد زُرارة (جد بطن من تميم) لصلبته شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حصن ولا عبيسة بن حصن ولا لحمّل بن بدر شعر مذكور » (١) .

ومن الحق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلي ، إذ عدت عليه عوادي الرواية وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وأفراً لجاءكم علم وشعر كثير » (٢) . ونحن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو ، فقد بقي منه كثير ألقت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدي رواة أمماء سجلوه ودونوه .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

(١) الحيوان ٤/٣٨٠ وما بعدها .

الشعر الجاهلي شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالاً واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستانى ، ولكن كثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فالرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى والألمان أنشودة الظلام والفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكون من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيبود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلم أو حين يمثل ، فهو في كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخي يحكيه أو علمي تهذيبي يرويّه أو تمثيلي مسرحي يؤدّيّه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلي يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقرب من الضرب الرابع الغنائي ، لأنه يجول مثله في مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوره فرحاً أو حزناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والثناء ، وكان يُصحبُ عندهم بآلة موسيقية يُعزّفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن تسمّى سموه (Lyric) أي غنائي .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعّم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائي ، إذ يماثل الشعر الغنائي الغربي من حيث إنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يريث أو حين يعتذروبعاتب ، أو حين يصف أي شيء مما ينبثُّ حوله في جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائي الغربي من حيث إنه كان يغنى غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنى في قصيدته :

طفلةٌ ما ابنةُ المحللِ بيضا ءلعوبٌ لذيدةٌ في العناق^(١)

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنى ببعض شعره من مثل السليلك بن السلّكة^(٢) وعلقمة بن عبّدة الفحل والأعشى ، وكان يوقّع

(١) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب) رخصة ناعمة .

٥١/٥ وما في البيت زائدة ، وطفلة : (٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٣٤/١٨ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج، ولعله من أجل ذلك سمي صنّاجة العرب^(١). ويقول أبو النجم في وصف قينة^(٢) :

تَغْنَى فَإِنَّ اليَوْمَ يَوْمٌ مِنَ الصَّبَا ببعض الذي غنى عمرو القيس وأعمرو
وهو يقصد بعمر و، عمرو بن قسيثة . ويقول حسان بن ثابت^(٣) :

تَغْنَى بالشعر إماماً كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلمهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد، ومنه الحُداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبياً عاماً .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمزهر والدفّ وكانا من جلد وكالصنج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك، وكالبربط وهو آلة موسيقية وترية شاعت في بلاد الإغريق، ويقص علينا علقمة بن عبدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضرين على البرابط^(٤) وكانوا كذلك في الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضرين على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خلسيدة وهريرة في اليمامة^(٥) والأخيرة هي صاحبة الأعشى التي ذكرها في معلقته ، ويروي الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جندعان جلبهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس^(٦) وفي أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نردّ بدرأ فنتقيم عليه ثلاثاً ونسحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب^(٧). وفي السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن سخطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقتلت

-
- (١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩ .
وافظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢١٤/١ .
(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ .
(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٣/٩ .
(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٧/٨ .
(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤ .
(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٤١/٢ .
(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤ .

إحداهما ، وفرت الأخرى^(١) . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا
إحدى القيان أن تغني بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب^(٢) .
ويكثر ذكر هؤلاء القيان في شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كن يضربن عليه من
آلات الطرب ، كقول علقمة في ميمته^(٣) :

قد أشهد الشُّرب فيهم مِزْهَرَرِيْمٌ والقوم تصرعهم صهباء خُرْطُوْمٌ
ويقول الأعشى في معلقته :

ومستجيب تحال الصنّج يسمعه إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضْلُ^(٤)

ولطرفة في معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل في ذلك كله ما
يدل على أن الغناء في الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين في حفلاتهم لاعبات على
المزاهر^(٥) ، وفي الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً
بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرس^(٦) ، وأكبر الظن أنهن كن
يقرن هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن
يؤلفن في الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففي الطبري والأغاني أن هنداً بنت
عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد وكانت هند تغني
في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها^(٧) :

إن تُقبِلوا نَعانِقَ ونفِرشِ الثُّمَارِقِ^(٨)

أو تدبِروا نِفَارِقَ فِرَاقَ غَيْرِ وَاِمِقِ^(٩)

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٥٣/٤ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/١١ .

(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع

شارب ، رزم : مترنم ، والصهباء : الحمر ،

والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .

(٤) المستجيب : العود ، واستاع الصنّج

له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل :

اللابسة ثوباً واجداً .

(٥) العمدة ٣٧/١ .

(٦) الطبري (طبعة أوربا) ١١٢٦/١ .

(٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٤ وتاريخ

الطبري ١٤٠٠/١ .

(٨) الثمارق : جمع نمرقة وهي الطنفسة

والوسادة الصغيرة .

(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء ديني يرتلونه في أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق تبيير كيا نُغير » . وكانوا في أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دماها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصَب الذي شاع بينهم في الجاهلية . وربما كان في اسم الداجنة والمدجنة ، وهي القينة تغنى في الدَّجَن وحين ظهور الغيم في صفحة السماء^(١) ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلهم الجذب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر في الجاهلية كان يُصَحَّبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائي تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضرباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلي : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصَب والسَّناد والمزج ، فأما النَّصَبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذي يستعمل في المراثي ، وكله يخرج من أصل الطويل في العر وض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما المزجُ فالخفيف الذي يُرَقِّصُ عليه ويُسَمَّى بالدفِّ والمزمار فيطرب ويستخف الخليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفتحت العراق وُجلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجرأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »^(٢) .

ولعل في اقتران النَّصَب بالمراثي ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينياً ، فهم يتغنون به في الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذي كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما المزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلمهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذي يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن المزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمْل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة في الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم في جو غنائي مشبه لنفس الجو الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي فقد كان الشاعر يغني شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

(١) انظر مادة دجن في لسان العرب وغيره (٢) العمدة لابن رشيقي (طبعة أمين هندية) من معاجم اللغة . وراجع المفصليات ص ١٣٠ . ٢٤١/٢

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء في شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف في أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ في أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها ، فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريح في مطالع القصائد وما كان يعتمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتي لأبياتهم كقول امرئ القيس في معلقته يصف الفرس :

مِكْرٌ ، مِفْرٌ ، مُقْبِلٌ ، مُدْبِرٌ ، مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عُلِّ

ويكثر هذا التقطيع في أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التي يستهلها بقوله :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِيَمِينِي تَابَدَ غَوْلُهَا فِرْجَامُهَا

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكان للبيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهبي لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته في كلمتين متتاليتين . ولا نشك في أن صور الأوزان المتنوعة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة في بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمقتارب والرمل والمزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل في الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران في حداثهم وفي كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتشح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثرت فيه الحذف وكثرت التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر (١) ، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حداثاً وغير حداثاً أحدث فيه تغيرات شتى .

(١) انظر باب الرجز في العمدة لابن رشيح .

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربي جاهلياً وغير جاهلي إلى موضوعات أَلَفَ فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمرائى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبي ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تاماً باب العتاب والاعتذار .

ووزَّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمرائى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى يابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المرائى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولبو ، ويدخل فى المديح المرائى والافتخار والشكر واللفظ فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطَّرْدُ وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيح موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُرَدَّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسي موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكري : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمرائى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه (١) « وهو تقسيم جيد غير أنه نسي باب الحماسة ، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات في الشعر الجاهلي ترتيباً تاريخياً ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا في ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظناً أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره ، وفي أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة (٢) .

ويظهر أنه كانت لا تزال في نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء في القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول في بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) ورد عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً في مثل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) . ويقول جل وعز في سورة الشعراء : (وما تنزات به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفك أئيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .
وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

(١) ديوان المعاني ١/٩١ . (طبع دار المعارف ١/٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث في وعيه الشعر يسمى مسحلاً وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قطن ، كانت له تابعة من الجن اسمها جهنم (١) .

وظل بعض الشعراء في الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول (٢) :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرُ شيطانُهُ أنثى وشيطاني ذكْرُ
وفي أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّةً خاصة ، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقِي رأسه وانتعل نعلا واحدة (٣) ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سنهم في الحج ، وكان شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعددهم بالهجاء اضطرراً اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن وراقاء الأسدى أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً ، فنظم زهير أبياتاً يتوعدده بالهجاء المقذع ، يقول فيها (٤) :

ليأتينك مني منطلقٌ قدعٌ باقٍ كما دنس القُبْطِيَّةَ الودكُ

١٩١/١ .

(٤) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص ٢٥٥
وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)
ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل
ثوب أبيض . الودك : الدمس .

(١) انظر المؤلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة

جهم في لسان العرب ، والحيوان ٢٢٦/٦
والقصديتين رقم ١٥ ، ٣٣ في ديوان الأعشى

(٢) الحيوان ٢٢٩/٦ .

(٣) امالي المرتضى (طبعة عيسى الحلبي)

ففرغ الحارث ورد عليه ما سلبه منه ^(١) . وواضح أن زهيراً يستخدم في وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس ، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرّجس والإثم . ويروى أن رجلاً يسمى زُرْعَة بن ثوب من بني عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرد بن ضِرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلا لأبويه فاشتراها منه بغم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا ، وركب إلى مزرد وقصّ عليه القصة ، فقال مزرد : أنا ضامن لك أن تُردّ عليك بأعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ، ونراه يعوِّذها بهجائه ، فهي إن لم ترد ستكون ناراً تأتي على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول ^(٢) :

فيا آلَ ثُوبٍ إنما ذُوْدُ خالدٍ كَنارِ اللَّطِيّ ، لا خَيْرَ في ذُوْدِ خالدٍ ^(٣)
 بهن دُرُوْءٍ من نَحازٍ وِغْدَةٍ لها ذَرِبَاتٌ كالثُّدِيِّ النّواهِدِ ^(٤)
 جَرَبْنَ فما يَهْنَأَنَّ إلا بَغْلَقَةٍ عَطِينٍ وَأَبوالِ النّساءِ القِواعِدِ ^(٥)

وقد تحولوا يصبون أهاجهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرارةُ بنُ عُدَسٍ وهجى عبد الله بن جُدعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عيسى بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون ^(٦) » وبقدر ما

- (١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .
 (٢) المفضليات ص ٧٩ .
 (٣) اللود : الجماعة القليلة من الإبل .
 (٤) دروء : جمع دره وهو التواء .
 والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة :
 طاعون الإبل . الذرِبَات : جمع ذرِبة وهي
 رأس الخراج ، النواهد : النواهيض .
 (٥) يهنأ : يظلم . يظلمون : يظلمون .
 (٦) الحيوان ٩٣/٢ .

كان في القبيلة من شرف وأشرف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرفها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر وكثير الرؤساء في الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذرء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير تحملوا أو دخلوا في غمار العرب وغرقوا في معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَبَ بهم المثل في قلة ونذالة ، إذ لم يكن (منهم) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَوْا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالاً في العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولا سيما إذا جاورا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غنّياً أو باهلة . . فن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيّلان ومثل فزارة ومرّة وثعلبة ومثل عبّس وعبد الله بن غطفان ثم غنّياً وباهلة واليسعسوب والطفافة ، فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمخروم والمظلوم مثل باهلة وغنّياً مما لقيت من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأرقام ينكب فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليسعسوب والطفافة وهاربة البتّعاء (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنّياً وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب . حتى صار من لاخير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّة وثور وعكّل وتيمّم ومزينة ، ففي عكّل وتيمّم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكّل وتيمّم . وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضبّة مع ما في ضبة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقمة بن عُلَثة وكما بكى عبد الله بن جُدعان من بيت لُحْدَاش بن زهير^(١) .
 وفي السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه
 بأهاجيهم في قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ في هجاء
 القرشيين : « لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبْلِ » وفي ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء في
 نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم في القتال ، ولذلك قرنه عبد قيس
 ابن خنفاف البرجمي إلى ما يَلْتَقِي به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول^(٢) :

فَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَاتِ عِرْضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلًا^(٣)
 وَوَقَعَ لِسَانٍ كَحَدِّ السِّنَانِ وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقِنَاةِ عَسُولًا^(٤)
 وَسَابِغَةً مِنْ جِيَادِ الدُّرُوعِ تَسْمَعُ لِلسَّيْفِ فِيهَا صَلِيلًا
 كَمَا الْعَدِيرُ زَفْتَهُ الدَّبُورُ يَجْرُ الْمَدَجُّ مِنْهَا فَضُولًا^(٥)

فاللسان كان يَتَكَأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرمح . ويخيل إلى الإنسان
 كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف ، وقد أخذ كل
 منهم يريش سهام هجائه ويرى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن
 يكون سهمه أنفذ السهام وأصاها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا
 ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، فينشدون أهاجيهم لتذيع ،
 وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار ، وفي ذلك يقول راشد بن شهاب
 اليشكري لقيس بن مسعود الشيباني^(٦) :

وَلَا تُوَعِدُنِي إِنِّي إِنْ تُلَاقِي مَعِيَ مَشْرِفِي فِي مَضَارِبِهِ قَضَمٌ^(٧)
 وَذُمَّ يُغَشِّي الْمِرَّةَ خَزِيًّا وَرَهْطَهُ لَدَى السَّرْحَةِ الْعَشَاءِ فِي ظِلِّهَا الْأَدَمُ^(٨)
 وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

(١) الحيوان ١/٣٥٧ - ٣٦٣ .

(٢) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٣) الغضب : السيف القاطع ، والصقيل :

المسقول الحاد .

(٤) العسول : اللين المصى .

(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية

تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويمجر

منها فضولا كناية عن أنها سابعة تفضل عن أطرافه .

(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٧) المشرق : السيف ، وقضم : فلول

من كثرة الطعن .

(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الحليفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون في حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مُثلهم التي صورناها في غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهي تعني عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء فإذا هو يختص القبيلة وأشرفها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهي لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهي تفرّ في الحروب وتقعّد عن الأخذ بثأرها . ولا يكتبني الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، وقرأت في المفضليات قصيدة ربعة بن مقروم رقم ٣٨ فستره يذكر أجداد قبيلته في أيام بزاحة والنسار وطخفة والكلاب وذات السليم ، وقرأت قصائد بشر بن أبي خازم الأسدي في المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بني عامر في يوم النصار ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر في الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جرّم والرباب وجندام وبني سليم وبني كلاب وبني أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون في الأعراض ويطنون في الأنساب ، متعرضين للأمهات على نحو ما نرى عند الحميخ الأسدي في هجاء بني عامر وقد غدروا بأسدي منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مفدياً أهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البيداء (١) :

سائلٌ معداً من الفوارس لا أوفوا بجيرانهم ولا غنموا
فدي لسمي ثوباي إذ دنس ال قومٌ وإذ يدسمون ما دسموا (٢)
أنتم بنو المرأة التي زعم ال نأس عليها في الغي ما زعموا
واسترسل يصمها أشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه في
الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعى في قومه زعيم . وشاع بينهم
هذا الضرب من الوقوع في الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأمهم .

(١) المفضليات ص ٤١ .

(٢) ثوباي : أراد نفسه . يدسون : من الدسم

في العصر الإسلامي ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يملطخونه بالعارما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قيس بن خفاف البرجمي (١) :

لعن الله ثم ثنى بلعن ابن ذا الصائغ الظلوم الجهولا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتبلا (٢)

وكان النعمان كثير الوقائع في قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الحذاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول في بعضه (٣) :

نعمانُ إنك خائنٌ خدعٌ يُخفي ضميرك غير ما تُبدي

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمر بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُفردُ بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً في تضاعيف حماستهم وإشاداتهم بأبجادهم وانتصاراتهم الحربية ، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سعتهم الحروب ، وأمدّما شعراؤهم بوقود جزل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح في كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمي مجموعته من أشعارهم وأشعار من خلفهم باسم الحماسة ، فهي التي تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهي ديوانهم الذي يسطر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتكبير بالأعداء . وقرأ في المفضليات والأصمعيات فتجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتر به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضيق الخناق على أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصبرها في

شق النواة .

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .

(٣) المفضليات ص ٢٩٦ .

(٢) يرزأ : ينقص ، والفتيل : الهنة في

الملمّات وكرمها في الجذب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف ، وفي أثناء ذلك يصبّ سهام الهجاء إلى نحر أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً . ونحس في هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروّعاً ، وكان أشد ما يبهجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حد له ، فإذا تأثرت لنفسها وشفّت غلّها وحقدتها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصَّمّة التي يتغنى فيها بأنه ثار من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول (١) :

ويا راكباً إما عرّضتَ فبلّغنَ
قتلتُ بعيد الله خير لِدَاتِهِ
ذُؤَابَ بنِ أسَاءِ بنِ زِيدِ بنِ قَارِبِ (٣)
فلليوم سُميتُم فزارة فاصبروا
لوقع القنأ تنزون نَزْوَ الجَنَادِ (٤)
تكرُّ عليهم رَجَلَتِي وفوارسى
وأكرهُ فيهم صَعْدَتِي غير ناكِبِ (٥)
فإن تُدبرُوا يأخذنكم في ظهوركم
وإن تُسهلوا للخيل تُسهلُ عليكمُ
وإن تُدبرُوا ياخذنكم في ظهوركم
ومرّة قد أخرجنهم فتركنهم
وإن تُسهلوا للخيل تُسهلُ عليكمُ
وأشجع قد أدركنهم فتركنهم
وإن تُدبرُوا ياخذنكم في ظهوركم
وتعلبة الخنثى تركنا شريدهم
فليت قبوراً بالمخاضة أخبرت
أبا غالب أن قد ثأرنا بغالب (٢)
ذؤاب بن أساء بن زيد بن قارب (٣)
لوقع القنأ تنزون نَزْوَ الجَنَادِ (٤)
وأكره فيهم صَعْدَتِي غير ناكِبِ (٥)
وإن تُدبرُوا ياخذنكم في الترائب (٦)
بطعن كإيزاغ المخاض الضوارب (٧)
يروغون بالصلاء روع الثعالب (٨)
يخافون خطف الطير من كل جانب
تعلّة لاه في البلاد ولاعب
فتُخبرنا الخضر خضر محارب (٩)

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .
(٢) عرضت : آتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .
(٣) لدات : جمع لدة وهو التراب والكف .
(٤) النزو : الرثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .
(٥) رجلى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة . غير ناكب : غير عادل عنهم .
(٦) الترائب : عظام الصدر .
(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض .
المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواتح ، وإيزاغها أن كرمي يبوها شبه رشاش الطعنة من الدم يبوها ورشاشه .
(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلاء موضع هو مكان معركته مع مرة .
(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .
(٢) عرضت : آتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .
(٣) لدات : جمع لدة وهو التراب والكف .
(٤) النزو : الرثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .
(٥) رجلى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة . غير ناكب : غير عادل عنهم .

رَدَسْنَاهُمْ بِالخَيْلِ حَتَّى تَمَلَّاتِ عَوَاقِي الضَّبَاعِ وَالذَّنَابِ السَّوَابِغِ (١)
ذَرِينِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعْنِي أَلَا قِي بِإِثْرٍ ثُلَّةٌ مِنْ مُحَارِبِ (٢)

وواضح أنه يتشفي من قتلته أخيه، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة ، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء ، ومسهلين في الأرض . ويصور ما لقيته مرة في الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببني ثعلبة وبني محارب ، حتى شبت منهم الضباع . ويتهددهم بأنه سيعيد الكرة عليهم . وفي كل مكان يدوي مثل هذا النشيد ، ومن روائعهم في هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم ، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المعلمة المشهورة من مثل قوله :

مَتَى نَنْقُلُ إِلَى قَوْمِ رَحَانَا يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَاحِينَا
يَكُونُ نِفَالُهَا شَرْقِيَّ نَجْدِ وَلَهُوئُهَا قَضَاعَةٌ أَجْمَعِينَا (٣)
نَطَاعِنُ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَا وَنَضْرِبُ بِالسِّيُوفِ إِذَا غُشِينَا
بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِيَّ لُدُنْ ذَوَابِلٌ أَوْ بَبِيضٍ يَعْتَلِينَا (٤)
نَشَقُّ بِهَا رُءُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا وَنُخْلِهَا الرُّقَابَ فَتُخْتَلِينَا
كَأَنَّ جِمَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا وَسُوقٌ بِالْأَمَازِزِ يَرْتَمِينَا (٥)
وَرَثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ نَطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا (٦)
وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ عَلَى الْأَحْقَافِضِ نَمْنَعُ مِنْ يَلِينَا (٧)
نَجْدُ رُءُوسَهُمْ فِي غَيْرِ وَتَرٍ فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَنْتَقُونَا (٨)

المرنة . البيض : السيوف .
(٥) الأماز : الأراضي الصلبة ، السوق : جمع سوق وهو الحمل .
(٦) يبين : يتضح .
(٧) العماد : جمع عمود ، خرت : سقطت ، الأحقافض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة الحى للحرب .
(٧) الوتر : الثأر ، ونجد : نقطع .

(١) ردسناهم : ربيناهم ، العواقي : الجائفة ، وكذلك السوابغ .
(٢) التلة : الجماعة من الناس .
(٣) النفال : خرقه توضع تحت الرحي لاستقبال ما يطحن ، اللهوة : القبضة من الحب .
(٤) توصف الرماح بالسمر لذبوها ، وقتنا الخطي : نسبة إلى الخط وهي بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن :

كَأَنَّ سَيْفُونَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا^(١)
كَأَنَّ ثِيَابِنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضْبُنُ بِأَرْجَوَانٍ أَوْ طُلِينَا^(٢)

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذي يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها في نجد شرقها وغربها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التي ينديقون بها أعداءهم كثوس الموت المرة ، ومدّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رهوس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف في أيديهم وأيدي أعدائهم كأنها مخاريق بأيدي لاعبين ، وهم يقتلون فيهم ، كما يُقتل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذي يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفي الأصمعيات أمثلة منها طريفة ، من مثل قول المفضل النكسري يصف موقعة بين عشيرته من بني نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول^(٣) :

كَأَنَّ هَزِيْزَنَا يَوْمَ التَّقِيْنَا هَزِيْزُ أَبَاةٍ فِيهَا حَرِيْقُ^(٤)
وَكَمْ مِنْ سَيْدٍ مِنَّا وَمِنْهُمْ بَدَى الطَّرْفَاءِ مَنْطِقُهُ شَهِيْقُ^(٥)
فَأَشْبَعْنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوْهَا فَرَاْحَتْ كُلُّهَا تَعِيْقُ يَفُوْقُ^(٦)
فَأَبْكِيْنَا نِسَاءَهُمْ وَأَبْكُوا نِسَاءً مَا يَسْمُوْغُ لَهْنِ رِيْقِ
يُجَاوِزْنَ النَّيَاحَ بِكُلِّ فَجْرٍ فَقَدْ صَحَلَتْ مِنَ النَّوْحِ الحُلُوْقُ^(٧)

وطبيعي وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم ، وهناك كثيرون يطيلون في وصفها ووصف الخيل التي يركبونها في اللقاء . ومن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حنجر في لامية له مشهورة أطال فيها في تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً في المفضليات

(١) المخاريق: المناديل تلف ويلعب بها ،
لعبة كانت عندهم .
(٢) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٣) الأصمعيات ص ٢٣٣ وما بعدها .
(٤) الهزيز: الصوت ، الأباة: أجمة الغاب .
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تعيق : تمتلئ ، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحلت : بحث .

والأصمعيات^(١) ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، ومن اشتهر في هذا الوصف أبو دؤاد الإيادي وزيد الخليل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفي الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلاً رفيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ في ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول^(٢) :

وإن تسأليني فإني امرؤٌ أهين اللئيمَ وأحبُّو الكريما
وأبني المعاليَ بالمكرُماتِ وأرضى الخليل وأروى الندىما
ويحمد بذلي له مُعتَفٍ إذا ذمَّ من يَعْتَفِيهِ اللئِئِما^(٣)
وأجزى القروضَ وفاءً بها بيؤسى بئيسى ونُعْمى نعيمًا^(٤)
وقوى فإن أنت كذبتني بقولى فاسئلُ بقوى عليما
يُهيئون في الحق أموالهم إذا اللزباتُ انتحَيْنِ المُسيما^(٥)
طوالُ الرماح غداة الصبحِ ذُوو نَجْدَةَ يمنعون الحرِما

وهو يذكر في البيت الثاني أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمير ، ويكثر في حماستهم تملحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر^(٦) ، وكان في ذلك إعلاناً عن كرمهم وبذلهم على نحو ما تقدم في غير هذا الموضوع عن طرفه وفتوته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها في الشعر الجاهلي على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد

بالسيئة مثلها وكذلك الحسنة .

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها

ورقم ٦٤ و٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و٦٥ .

(٢) المفضليات ص ١٨٣ .

(٣) المعتق : السائل في غير طلب .

(٤) البؤس والبئسى بمعنى ، يقول يجرى

(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ،

المسيم : الكثير الإبل والغنم ، اشتقه من

السائمة .

(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العبادى ، فقد تحولوا بها من هذا الباب إلى وصفها في ذاتها وصفاً طريفاً .
ومن الموضوعات التي تتصل اتصالاً واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون
أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم (١) ، فكانوا
يمجدون خلاصهم ويصفون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من
قتلهم . وكان يشرك الرجال في ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن يَنْحُنَّ عَلَى الْقَتِيلِ
حتى تثار القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذي
نعرفه في مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبتها ، وقد حدثنا الرواة أن
الجنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صغراً ومعاوية ، وكانت هند بنت
عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباهاً (٢) . وفي هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم
يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطْلَن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال
لأنهن كن يخلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن
ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل في حلق رعووسهن ما يجمع بينهن
وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت
تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحدّه . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى
تصوير حزنهم العميق لإزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت
وخاصة عند نساءهم بكاء ونواحاً وندباً حاراً . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من
الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك في أن الصورة
القديمة لهذا التأبين هي تلك النقوش التي عثروا عليها في أنحاء مختلفة من الجزيرة ،
وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم
تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع
الذي نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمنون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى
الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مرد لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشققن جيوبهن
عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه ماتماً من العويل والبكاء ،
ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مرآة شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهم

التي لا تنازعُ هي الخنساء ، فقد قُتل أخوها معاوية في بعض المعارك ، فارتفع
نسيجها وبكاؤها عليه ، وقُتل أيضاً أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ،
ومن رائع ما نذبت به صخرًا :

قَدَى بِعَيْنِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ
كَأَنَّ عَيْنِي لَذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ
فَالْعَيْنِ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقٌّ لَهَا
تَبْكِي خُنَاسٌ وَمَاتِنْفُكُ مَا عَمَّرْتُ
بِكَاءِ وَالْهَيْهَ ضَلَّتْ أَلَيْفَتَهَا
تَرْعَى إِذَا نَسِيبَتْ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ
وَإِنْ صَخْرًا لَنَاتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ
كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(٦)

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسَّ داعي الموت ندب نفسه
ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن ،
ثم لحده ودفنه ، وتنسب للممزيق العبدى أو ليزيد بن الحذاق قطعة يصور فيها هذا
المصير الذى ينتظره ، يقول فيها ^(٧) :

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ
قَدْ رَجَّلُونِي وَمَا رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ
وَأَرْسَلُوا فَتِيَةً مِنْ خَيْرِهِمْ حَسِبًا
أُمُّ هَلْ لَهْ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ^(٨)
وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقٍ^(٩)
لَيْسُنْدَوَانِي ضَرِيحَ التُّرْبِ أَطْبَاقِي^(١٠)

(١) العوار : الرمذ ، ذرفت : قطرت

قطرًا متتابعًا .

(٢) مدار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت

بجديد الأرض عن أنه مات حديثًا .

(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .

(٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ،

والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجليل .

(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .

(٨) بنات الدهر : أجداده ، حمام الموت : دنوه .

(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق :

المزقة .

(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأيين من يموتون منهم في ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأيين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد في قصيدة المرقش^(١) :

هل بالديار أن تعجيب صَمَمٌ لو كان رسمٌ ناطقاً كلّم
فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصةً للتأيين ، على نحو ما صنع دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ في مرثية أخيه عبد الله^(٢) .

أرثُ جَدِيدُ الجَبَلِ من أمِّ مَعْبَدٍ . بعاقبةٍ وأخلفتُ كلَّ موعِدِ
وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثى أخاه مصوراً مصرعه وولفه به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤنبوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا في مراثيهم لتأيين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأيينهم مرثية أوس بن حجر لفضالة بن كلدَةَ الأسدي ، وفيها يقول^(٣) :

أَيْتُهَا النفسُ أَجْبَلِي جَزَعَا إن الذي تحذرينِ قد وقعا
إن الذي جمعَ السّماحةَ والنَّدَّ جُدَّةَ والحزَمَ والقوى جُمعا
الألمى الذي يظنُّ لك ال ظنُّ كَأَنَّ قد رأى وقد سمعا^(٤)
المخلفَ المتلفَ المرزأ لم يُمتَعِ بضعفٍ ولم يَمُتَ طَبِعا^(٥)
أودى وهل تنفع الإشاحةُ من شيءٍ لمن قد يحاول البِدعا^(٦)

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .
(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث :
أخلق . بعاقبة : بأخرة .
(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغاني
٧٤/١١ .
(٤) الألمى : حاد الذكاء ، يريد أنه

يخدس الأمور فلا يخطئه وأنه فطن صادق
الظن جيد الفراسة .
(٥) المرزأ : الذي تصيبه الرزايا في ماله
لكرمه ، يمتع : يصاب ، الطبع : التميم .
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجذبة
طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك (١) :

وعلى هذا النحو ألمّ الشاعر الجاهلي بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبي دؤاد الإيادي يرثي فيها من أودى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول في مطلع رثائهم (٢) :

لا أعدُّ الإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْتُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ الإِعْدَامُ

ويستمر يبكي فيهم الرعوس العظام وخلالهم من الثأني والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسد وما يخلط فرط حداثتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول إنهم أصبحوا هاماً وصدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصدى ما يزال يقول استقوني :

سُلِّطَ الدَّهْرُ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ
فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطَتْ نَفْسِي حَسْرَاتٍ وَذَكَرَهُمْ لِي سَقَامٌ

ويجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وساداتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يمدحون فيها كرم الحوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم (٣) .

وكان بعض السادة تمتد مأثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التي أدوها ، كأن يفتكوا أسيراً ، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها (٤) « :

ربيعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرة وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير العظم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

(١) المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .

(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .

(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملائ .

مُتْرَعُ الْجَفَنَةِ رِبْعِي النَّدَى حَسَنٌ مَجْلِسُهُ غَيْرٌ لُظْمٌ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب، فهم يتقدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة بمدحهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحهم . واشتهر بذلك زهير والنايفة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلامة بن عبدة فيهم مفضلية بديعة نظمها في الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع في يديه أسيراً^(١) . أما النايفة فخص النعمان بن المنذر بمدائحها ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى في أيدي الغساسنة ، فأقبل عليهم بمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً في غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هي من أروع ما دبّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفي ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . وما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العُدْواني^(٢) والمتلمس^(٣) . ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثيرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهلهم بـجُجْ الحقائق . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم في القبائل ، فكثرت الشعراء حولهم وأخذ يمجج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يملحه بعد إيقاعه بقبيلته ، ومن رحل إليه المتلمس والمزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن بديع ما نُظِمَ فيه قول حُجْر بن خالد^(٤) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجِدْ كفعل أبي قابوس حزماً ونائلاً

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها .

(٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .

(٤) الحيوان ٥٨/٣ .

(٢) انظر قصيدته في المفضليات برقمى ٣١٠٢٩ .

يُسَاقُ الغَمَامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ إليك فأضحى حول بيتك نازلاً
فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى وتُضحى قلوبُ الحمدِ جَرَبَاءَ حائلاً^(١)
فلا ملكٌ ما يبلغنك سَعِيه ولا سوقةٌ ما يمدحنك باطلا

وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيدياً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده وملحه وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ومرّبنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خديّام ، وربما كان في ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلم يسبق في قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، إذ يتعرضون لجبينها وخذها وعنقها وصدرها وعينها وفها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحياتها وعفتها^(٢) ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهي مغامرات تحوّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخّل اليشكري للمتجدة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعي وهي تجرى على هذا النمط^(٣) :

ولقد دخلتُ على الفتاة في الخِدْرِ في اليوم المَطِيرِ
الكاعبِ الحسناءِ ترُّ فل في الدَّمَقِيسِ وفي الحريرِ
فدفعْتُها فتدافعت مَشَى القِطَاةِ إلى الغَدِيرِ

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم .

القلوب : الناقة الشابة . الحائل : التي

حمل عليها فلم تلقح .

وَلَشَمْتُهَا فَتَنْفَسَتْ كَتَنَّفُسُ الظُّبَى البَهِيرِ^(١)
فَدَنْتُ وَقَالَتْ يَا مَنْ خَلَّ مَا بِجَسْمِكَ مِنْ حَرُورِ
مَا شَفَّ جَسْمِي غَيْرَ حُبِّ كِ فَاهْدُنِي عَنِّي وَسِيرِي

ووقف الشعراء طويلاً يصورون حبيهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبي خازم^(٢):

فَظَلَلْتُ مِنْ فَرَطِ الصَّبَابَةِ وَالهُوَى طَرِيقًا فَوَادُكَ مِثْلَ فَعْلِ الأَيِّهِمْ^(٣)
وكانت ذكراها لا تزال تلم بهم ، ومن ثمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره في أنفسهم من تباريح الحب^(٤) ولهم في وصف هذه الذكرى وما تصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبايتهم على شاكلة قول المرقش الأصغر^(٥):

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا ، عَلَى أَنْ ذِكْرَةً إِذَا خَطَرْتُ دَارَتْ بِهِ الأَرْضُ قَائِمًا
وكانوا كثيراً ما يصفون ظُغُنَّهَا ، وهي ترحل في الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً في حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، ويتقلون معها حيث حلت ، وفي معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه في هذا الوصف المثقَّب العبدى في قصيدته^(٦):

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعِينِي وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَنَّ تَبِينِي
فَإِنِّي لَوْ تَخَالَفَنِي شِمَالِي خَلَّافُكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي

وقد مضى يصف ظُغُنَّهَا ويتتبع سيرها وما تصنع هي وصواحبها في قلوب الرجال وهم يظهرون بكَلَّةً ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على ظهورهن :

(١) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .
(٢) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمعيات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .
(٣) المفضليات ص ٢٤٥ .
(٤) المفضليات ص ٢٨٨ .
(٥) المفضليات ص ٣٤٦ .
(٦) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الأيهم :

أرَيْنَ محاسناً وكننَ أخرى من الأجياد والبشيرِ المصونِ
ويقول لإنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً
وجمالاً. وكن كطبيعة النساء في كل عصر ينصرفن عن الشيب ومن قلّ ماله^(١).
ولذلك كثر عتابهم معهن، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذي يذهب
بأموالهم، وداثماً نراهم يمتجون عليهن بأن خلود المرء في بذله لا في ثرائه^(٢). وقد
يصورون في تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى، على نحو ما يصور ذلك طرفة
في معلقته وكذلك امرؤ القيس، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة، فهم
يتملحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين
يردعهم. على أن منهم من كان يتسامى في غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذرى
له أصول في الجاهلية عند عنزة وأضرابه.

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم، بل كانت في المكان المصون، وكان
الشاعر يستلهمها شعره، ولذلك كان يضعها في صدر قصيده، ونحس عند
كثيرين منهم، وخاصة فرسانهم من مثل عنزة، أنهم يقدمون مغامراتهم في الكرم وفي
الحرب لها لينالوا حبها، وكان أكثر ما يشجيم ويبعث الموجدة في قلوبهم أن تؤسر
وتسبي، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرومة إلى ديارهم.

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف، وقد وصفوا كل شيء وقعت عليه
أعينهم في صحرائهم، وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلم وتشبيهم إذ يخرج الشعراء
إلى وصف رحلاتهم في الصحراء، فيتحدثون عن قسطهم للمفاوز البعيدة، فوق
إبلهم، ويأخذون في وصفها وصفاً مسهباً على نحو ما هو معروف عن طرفة في
وصفه لناقته بمعاقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير،
والمفضليات والأصمعيات تنخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال
وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر
ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدي السابح، وصوتها

(١) المفضليات ص ٣٥، ١٨٦، ٤١٨. بيت؛ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت

(٢) المفضليات ص ١١٨، ص ١٢٥. ١٢، ١١.

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجليل ويشبهون صدرها بالطريق . وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصيد^(١)، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها . وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »^(٢) . وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب في المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلاً يشبهونهم بالكلاب^(٣) .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار . ولا مرى القيس قطعة بدیعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذي اتخذده للصيد ، وفيها يقول :

له أَيْطَلَا ظَبْيِي وَسَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبٍ تَتَفَلُّ^(٤)
يقول أبو عبيدة : « وما يشبه خلقه من خلق النعام طول وظيفها^(٥) وقصر ساقها وعُزْمَى نِسْبِيَّهَا^(٦) وما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبها، وما يشبه من خلقه خلق الحمام الوحشي غلظ لحمه وظماً فصوصه وسرته^(٧) وتمحص^(٨) عصبه وتمكن أرساغه^(٩) وعرض صمّوته^(١٠) .. وما يشبه من خلقه خلق الكلب هرت^(١١) شدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قصبه^(١٢) وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب

(٦) النسي : عرق في الساق .
(٧) ظمأ هنا : ضمور ، الفصوص : ملتق كل عظمتين ، سراته : أعلاه .
(٨) تمحص : شدة .
(٩) الرسخ في الحيوان : المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .
(١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .
(١١) هرت : اتساع .
(١٢) قصه : صدره .

(١) انظر في ذلك معلقة لبيد والمفضليات رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد صائداً مسياً كلابه الستة .
(٢) الحيوان ٢٠/٢ .
(٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .
(٤) أَيْطَلَا الظبي : خاصرته ، الإرخاء : سير السرحان وهو الذئب . والتففل : الثعلب ، وتقريبه : قفزه وثبته .
(٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

جلده ولُحوق^(١) بطنه^(٢) . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة .
ولأبي زُبَيْد الطائي قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه
الأسد حطماً^(٣) ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُقَيْبِل
الغُتَوِي وقد شبه فرسه بذئب^(٤) :

كسَيْدِ الْغَضَا الْعَادِي أَضَلَّ جِرَاءَهُ عَلَى شَرَفٍ مُسْتَقْبِلِ الرِّيحِ يَلْحَبُ^(٥)

وذكروا الهر والديك والخنزير في وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر^(٦) :

كَانَ هِرًّا جَنِيْبًا عِنْدَ مَغْرَضِهَا وَالتَّفَّ دَيْكٌ بِرَجْلَيْهَا وَخِنْزِيرٌ

وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى^(٧)
كما ذكروا الحُبَارَى والضَّبَّ واليربوع والجرذان والجراد والأرانب والضفادع والوعول
أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعى ، ويشبه عنتره نفسه إزاء
بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابه ، ويقول في بعض وصفه له^(٨) :

رَقُودٌ ضُحِيَّاتٍ كَانَ لِسَانَهُ إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ مَكْحَالٌ أَرَمَدًا^(٩)

وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف ووصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من
وصف فرسهم بالعُقَاب إلى وصفها^(١٠) ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون
به ، وفيه يقول عنتره^(١١) :

ظَعَنَ الَّذِينَ فَرَّقَهُمْ أَتَوْعٌ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(١٢)

(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص

٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ،

٢٣٤ والحيوان ٢١/٧ .

(٨) الحيوان ٣٠٨/٤ .

(٩) رقود الضحي ، ذلك من شأن الأفاعى

تنام في الضحي وتمتدقظ في الظلام ، والأجراس :

الأصوات ، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ،

جمل لسانه كالمكحال في دقته وسواده .

(١٠) الحيوان ٣٣٩/٦ وما بعدها .

(١١) الحيوان ٤٤٢/٣ ويختار الشعر الجاهلي

ص ٣٩٢ .

(١٢) الأبقع : الأسود .

(١) لحوق : ضبور .

(٢) الحيوان ٢٧٥/١ .

(٣) الحيوان ٢٧٤/٢ والأغانى ١١/١٣٢ .

(٤) الحيوان ٤١٦/٤ .

(٥) السيد : الذئب ، والغضا : نبت ،

وذئاب الغضا أخبث الذئاب ، أضل جراه :

فقد أولاده فهو يسرع في عدوه ، يلحج :

يمررا سريعاً .

(٦) الحيوان ٢٧٧/١ وديوان أوس ص ٤٤

جنيباً : يجنبها ، مغرضها : موضع الخزام منها ،

وإنما ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والحمش

بالمخالب ، يصفها بشدة تفرعها لفرط نشاطها .

حرق الجناح كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلْمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مَوْلَعٌ (١)
 إن الذين نَعَبْتَنِي لِي بِفِرَاقِهِمْ هُمُ اسْمُهُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا (٢)

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوحه وما
 يهيج فيهم من شوق وشجأ . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم
 من وصف ذلك كله وتصويره . وينبغي أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورية
 عن طوق الحمامة والديك والغراب والمهدد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن
 أبي الصلت ، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى
 الجاحظ كثرة ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم (٣) ووصف البرد وقوارصه
 والحر وهواجر (٤) وما يجرى في ديارهم أحيانا من خصب بعد مطر غزير (٥) ،
 وفي معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عَرِمًا نَزَلَ فِي مِوَاتِنِ بَنِي أَسَدٍ
 بِالْقَرَبِ مِنْ تِيَاءٍ ، وَيَتَرَدَّدُ هَذَا الْوَصْفُ فِي شِعْرِهِ وَشِعْرِ شَاعِرِهِمْ عَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء
 أكثروا من وصف الجذب . وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ومخاوفهم في لياليها من الجن
 والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئاً يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمرعى ،
 ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانها وسقائها ومجلسها وأثرها ، وكانوا
 يُقْحَمُونَهَا كَمَا قَدَمْنَا فِي حِمَاسَتِهِمْ ، وَيَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمْ يَسْقُونَهَا الصَّحَابَ وَالرِّفَاقَ عَلَى
 صَوْتِ الْقِيَانِ وَمَعَ تَحَرُّرِ الْجَزُورِ ، يَقُولُ ثَعْلَبَةُ بْنُ صُعَيْرٍ فِي حِمَاسِيَةِ لَهُ (٦) :

أُمِّمِيَّ مَا يُدْرِيكَ أَنْ رَبَّ فِتْيَةٍ بِيضِ الْوَجْهِ ذَوِي نَدَى وَمَآثِرٍ
 بَاكَرْتَهُمْ بِسِبَاءِ جَوْنٍ ذَارِعٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَبْلَ لَغْوِ الطَّائِرِ (٧)

(٤) الحيوان ٧٣/٥ ، ٧٨/٥ وما بعدها
 وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١ .
 (٥) الحيوان ١٢٠/٣ والمفضليات ص ٣٣٥ .
 (٦) المفضليات ص ١٣٠ .
 (٧) السبأ : اشتراء الخمر ، الجون : الزق الأسود .
 الذارع : المختلط بالماء .

(١) حرق : أسود ، وشبه لحية بالجلمين
 لأنه يجرب بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقرضان .
 (٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشديد
 الطول .
 (٣) الحيوان ٢٥٥/٦ وانظر الأسمعيات
 رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥ .

فَقَصَّرْتُ يَوْمَهُمْ بَرْنَةً شَارِفٍ وَسَمَاعٍ مُدْجِنَةً وَجَدَوِي جَازِرٍ^(١)
 وهذه الموضوعات التي قدمناها جميعاً كانت تتداخل في القصيدة الطويلة وكان
 يتداخل معها ضرب من الحكم والمعاني التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدلى في تضاعيف
 قصيدته بتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لابنه ، على
 نحو ما صنع عمرو بن الأَهم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله^(٢) :

وإنَّ المجدَ أولُهُ وَعُورٌ وَمصدرٌ غِبَّهُ كَرْمٌ وَخَيْرٌ^(٣)
 ومن كثرت الحكمة في شعرهم زهير والأفوه الأودي وعلقمة بن عبدة ، وهي
 تكثر في ميمية الأخير وتتوالى في أبيات متعاقبة من مثل قوله^(٤) :

الحمْدُ لا يُشْتَرَى إلا له ثَمَنٌ مِمَّا يَصْنُ بِه الأَقْوَامُ معلومٌ
 والجدُّ نافيةٌ للمال مهلكةٌ والبخلُ باقٍ لأهليه ومدمومٌ
 وكلُّ حِصْنٍ وإن طالت سلامته على دعائمه لا بُدَّ مهدمٌ
 ويلخص لنا رأى الجاهليين في المرأة وما تطلبه من الرجل ، فيقول في بانيته^(٥) :

فإنَّ تسألوني بالنساء فإنني بصيرٌ بأدواء النساء طبيبٌ
 إذا شاب رأس المرء أو قلَّ ماله فليس له من وُدِّهن نصيبٌ
 ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم ، فنحن نجدها في معلقة عبدة بن الأبرص ،
 وفيها يقول :

وكلُّ ذى غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغائبُ الموت لا يثوبُ
 ويقول عبدة بن الطبيب^(٦) :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدركُهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلٌ

(١) الشارف : الناقة ، ورنثها : صوتها

عند النحر . المدجنة : القينة تعنى يوم الدجن

والنيم . وجدوى الجازر : عطايه من أطايب اللحم .

(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة

(٣) غبه : عاقبته ، الخير : الكرم .

(٤) المفضليات ص ٤٠١ .

(٥) المفضليات ص ٣٩٢ .

(٦) المفضليات ص ١٤٢ .

ويقول عدى بن رَعْلَاء الغسالي (١) :

ليس من مات فاستراح بمَيِّتٍ إنما المَيِّتُ مَيِّتُ الأَخْيَاءِ
وتلك هي الموضوعات الأساسية التي تنظم في سلك التصيدة الجاهلية ،
فالشاعر يبدوها بالتشبيب أو النسب بالأطلال والديار ، ويصف في أثناء ذلك
جبهه ، ثم يصف رحلته في الصحراء ، وهي أول ما يقدمه للمرأة من ضروب
جراته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية التصيدة ، ويقدم
عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، فمفتناً في أثناء ذلك في
وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس
فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين
يصور ما حوله في الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التي قد تخرج
به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك في رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء
بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً ، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن
يُدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة
دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملمها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها
وحوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين
وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في
هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من
سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا^(١) ، وبفراهِ إن ولَّى الأديبار ونكص على أعقابهِ^(٢) ، وفي أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلاهم في الحروب ، ولهم في ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها . وجاءهم ذلك من أنهم لا يبذلون في الحقائق ولا يعدلون في علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّب بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتي شاذاً وفادراً . ونظن ظناً أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذي طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يمونها أو طلاء يزيّفها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها في أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثمّ تبدو في كثير من جوانبها كأنها شيء راسخ ثابت . ويتضح ذلك في حكمهم التي تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح في جوانب كثيرة من تأبينهم ومدحهم وغزلم وحماسهم ، إذ يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهي حقائق تُسرّدُ سرداً وقلما شايها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً في الوضوح والجلال . وقرأ في أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أي غموض أو أشراك ذهنية تفضل في ممراتها وشعبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعاني دائماً مجسمة في أشخاص أوفى أشياء . وخذ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في حماسهم ومراثيمهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق في مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهني عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها في هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرها من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة في الشاعر الجاهلي جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة في نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادي ، ولنرجع مثلاً إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ - ٣ .

(١) انظر مثلاً المفضليات رقم ١٠٨ .

والبدر والبيضة والدرة والدمية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطة، ويشبه أسنانها بالأقحوان وبناتها بالعتم وثرغها بالبلور وخذها وتراثها بالمرأة وشعرها بالخيال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وتديها بأنف الظبي ورائحتها بالملك وبالأترجة وريقها بالحمرة وبالعلس وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقها بالبردية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدن والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتميس والضبع والأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر والفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعر الجاهلي جميعه ، فالشاعر يستقى في أخليته من العالم الحسي المتراخي حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقوا النظر في أجزائه ، وفصلوا الحديث فيها تفصيلاً شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالاً ، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة . ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيمهم ، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطاحوا على معان بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها بمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفة في الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، واقرأ حماسية كعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك في غزلم ومدحهم وراثهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة . ومن ثم تبدوا في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد ، وجنى عليهم ذلك ضيقاً واضحاً في معانيمهم ، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . واقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعاني ، وستجد أيضاً براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته ، ويخُذُ مثلاً تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عادياً ، وشاعر يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السلم الناضر ، يريد أن يستم بذلك منظرأً بديعاً

للظبية ، يقول علباء بن أرقم (١) :

فيوما تُوافينا بوجهٍ مُقسَّمٍ كأنَّ ظبيةً تَعطُو إلى ناضِرِ المَسلَمِ

وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية في استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة (٢) :

وتصدفتُ حتى استبَّتكَ بواضحٍ صلَّتِ كمنْتَصِبِ الغزالِ الأتلَعِ

ورابع يجعل وجه الشبه حور العين ، وخامس يجعله في التنفس كقول المنخل

اليشكري :

ولثمتُها فتَنفَّستُ كتَنفَسِ الظبيِّ البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلاً جديداً. ونحذُّ مثلاً تصويرهم للرجال

بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربي (٣) :

وكنا نجومًا كلما انقَضَ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهمنٌ ليس بأقمتما

ويقول طنَّييل الغزوي في مديح قوم (٤) :

نجومٌ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بدا ساطعاً في حِندسِ الليلِ كوكبٌ

ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادةً بديعةً (٥) :

وإني من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سيِّدٌ قام صاحبهُ

نجومٌ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبهُ

أضاءتْ لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليلِ حتى نَظَمَ الجَزَعُ ثاقبه (٦)

والمَّ التابعة بهذه الصورة فتقلها نقلة جديدة ، إذ قال في النعمان بن المنذر مقارناً

بينه وبين الغساسنة (٧) :

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من

القسم وهو الجمال ، وأن في كأن زائدة ،

تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت :

أعرضت . بواضح : يريد بمنق ناصع جميل ،

وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأتم : من

القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٩٤/٣ .

(٥) الحيوان ٩٣/٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٩٥/٣ ويختار الشعر الجاهل

ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يَبْدُ منهن كوكبٌ
ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة في معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق
كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هي أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر
الملل في نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثوا فيها كثيراً من الحيوية ،
وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات
والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلا ، ومن ثم كانوا إذا وصفوا
الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجع إلى وصف طرفه لناقته فستجده
يصفها وهي سائرة به في طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمون كألواح الإِزَّان نَسَمَاتُهَا على لاحبٍ كأنه ظَهَرُ بُرْجُدٍ^(١)

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ،
فيستمر في وصفها وكأنه تدلته بها حباً ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه
يصنع لها تمثالا يريد أن يحفره حفراً في أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم
ويودون لو أتيتهم من يتصبها لهم تمثالا بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون حيولهم وكانوا
ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأتن وحمارها
ويصورونها لنا وهي تجرى في الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما في طريقها بكلابه
أوعلى الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولاً .

وطبيعي أن يفرض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ،
وقد يُلخِطون هذه الحركة في المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتب بالوقوف بالأطلال
وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظعن حبيبته وصواحبها في القافلة ، وقد خرجت
تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعين الشاعر بإزائها
تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلاً بديعاً .

البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق
وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإِزَّان :
تابوت لموتاهم ، ونَسَمَاتُهَا : زجرتها ، اللاحب :
الطريق البين الواضح الذي أثر فيه المشى .

وهذه الحركة في حياتهم التي تعنى عدم الثبات والاستقرار، وبالتالي تعنى عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيهم سريعة، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها، فالشاعر لا يقف طويلاً عند المعنى الذي يلم به بل لا يكاد يمسح حتى يتركه إلى معنى آخر. فحياته لا تثبت ولا تستقر، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر، بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة. ومن ثمَّ غلب عليه الإيجاز، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون، ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتبها فيها كل بيت غالباً بنفسه، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً.

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في أن القصيدة الطويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هي كل روابطها، أما بعد ذلك فهي مفككة، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه. ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس في الشعر الجاهلي، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته، وهو التنقل السريع. وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكري: إنما هي موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض في انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر في هذا الفضاء الصحراوي الواسع الذي لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد، والذي تتراعى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة. على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب، بل نراه أيضاً في وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التي أنشدتها المفضل الضبي والتي يسهلها بقوله (١):

(١) المفضليات ص ١٠٨، وأجمعت : عزمت أمرها، واستقلت : ارتحلت .

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلبت وما ودعت جيرانها إذ تولت
 فإنه يقص علينا بعد غزها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك ،
 وهو لا يسردها في إجمال ، بل يسرد تفاصيلها ، إذ يذكر أنهم أعدوا العدة للغزو
 والسلب ، يحملون قسيهم الحمر ، وقد خرجوا من واديين : مشعل والحبأ ورجلين ،
 وقد حمل زادهم تأبط شراً الصعلوك المشهور ، وكان يقتر عليهم في الطعام خشية أن
 تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً . ويصف لنا الشفري جعبة السهام التي كانت معهم ،
 وكيف أنهم كانوا يحملون حساماً صارماً ، بل سيوفاً قاطعة كأنها قطع الماء في الغدير
 لمعناً ، بل كأنها أذنان البقر الصغير تحركه ، وقد نهلت وعكست من دماء محرم
 ساق هدّيته إلى الكعبة ، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه ، كما قتلوا بعض من كانوا
 يرافقونه ، ومن لم يقتل أخذوه أسيراً . وينتهي القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يهرب الموت .
 ويكثر الصعاليك من قصص مثل هذه المغامرة ، ويلقانا في حماسياتهم كثير من
 وصف معاركهم ، وقد يحاولون سردها ، وهو سرد تمشي فيه الروح القصصية على
 نحو ما تمثل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبي خازم في المفضليات ،
 إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلاً عن يومي التّساروا لجفار ، فالقصص يتخلل شعرهم ،
 وقد أفردوا له في مطولاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشي . ونراه ماثلاً في غزلم على
 نحو ما مر بنا في غزلية المنخل الشكري ، وإنما تمثلنا بقطعة منها ، وهو ماثل في غزل
 المرقش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات . فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم
 كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين ، وهي
 روح لم تتسع عندهم ، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز . وبذلك
 لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي ، فقد ظل شعرهم غنائياً ذاتياً ،
 يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه ، غير محاول صنّع قصة ، يجمع لها الأشخاص
 والمقومات القصصية ، ويرتبها ترتيباً دقيقاً ، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله ، إذ كان
 مشغولاً بنفسه ، لا يهمه إلا أن يتغنى بها ويمشاعره .

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتركيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهي في الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيقاً لغوياً ، وهو في لم يحدث عفواً قلمبقتة تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدى معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور - إن صح أنه له - :

ما أَرانا نقول إلا مُعَارَا أو مُعَادَا من لفظنَا مكرورا
فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون في ألفاظ ومعانٍ واحدة ، ويمجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهديب ، فكل شاعر يتفح فيه ويهذب ويصنق جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معانٍ إلا ما يأتي نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا في ذلك ، حتى كان منهم من يُنجز قصيدته في عام كامل ، يردّد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية في بنائها^(١) .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريح في طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

(١) البيان والتبيين ٩/٢ وما بعدها .

في تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يكزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يُعيد فيها النظر فيبدل في بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلي لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يُدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة في هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها^(١) ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه^(٢) ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طُغَيْلاً بالخجبر لتزيينه شعره^(٣) ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره^(٤) ولقبوا غير شاعر بالنابعة في شعره ، ومن ألقابهم التي تدل على احتمالهم بتنقيح الشعر المثقّب والمتنخّل . وقد استطاعوا حقاً أن يبهروا العصور التالية بما وقروه لأشعارهم من صقل وتجويد في اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة في الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغة ، فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون في نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملاً ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها ، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عنوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في غزلية المتنخل اليشكري السابقة . وحقاً هو في جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفني ، ولذلك ظلت ماثلة في شعرنا العربي عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . وقرأ في حَوَالِيَات زهير وقصائده المطولة وفي غيره من المبرزين أمثال النابعة وعلقمة الفحل والمرقش والأعشى وطرفة والملمس وعنزة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبلي فستجلك أمام قصائد باهرة ، قد أُحكمت صياغتها وضُبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها في حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥٧/٥ . (٢) المفضليات ١/٤١٠ .
 (٣) أغاني (طبعة السامي) ٢١/١١٢ . (٤) انظر المفضليات (طبعة لايل) ١/٤١٠ ، ٤٨٥ .

في هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزَلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير في سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً في أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلاً يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطة والباذ والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأنفوان والحبل والهراوة والعسيب والجذع وتشبه ضاوعه بالحصير وصدرة بمداك العروس وغرته بنحمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكبير وعرفه بالقصب الرطبة وحافره بقعب الوليد وعنته بالرمح والصدعة وعينه بالقررة والقارورة ولونه بسائك الفضة وارتفاعه بالحباء . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبنوثة في المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لقرمه بمعلته طائفة طريقة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف في التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كصوير المتنخل اليشكري لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول (١) :

يَعَكْفُنَ مِثْلَ أَسَاوِدِ الْتَنُومِ لَمْ تُعَكْفِ لَزُورِ (٢)

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمَّ سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجها لإخراجاً جديداً فقال (٣) :

حَرَّةٌ تَجَلُّو شَتِيَّتًا وَاضِحًا كَشِعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْعَيْمِ سَمَطَعٌ (٤)

فجعل أسنان صاحبتة المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبرز من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجمر ولهبه ، وألمَّ عَمِيرَةُ بْنُ جَعْلٍ بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال (٥) :

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .
 (٢) يمكن : بمشطن شعر من ، والأساود :
 الأفاقي ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور
 كناية عن عفتن .
 (٣) المفضليات ص ١٩١ .
 (٤) الشيت : المتفرق يريد أسنانها
 المفلجة ، واضحاً : أبيض .
 (٥) المفضليات ص ٢٥٩ ، والرديني : الرمح .

جمعتُ رُدَيْنِيَا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ
وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنتره لبعض الرياض وتصويره
للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول (١) :

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً فتركنَ كلَّ حديقةٍ كالذَّرهمِ (٢)
فترى الذبابَ بها يُغْنَى وحده هَزِجًا كفعل الشارب المترنم
غَرِدًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ فعل المُكَيَّبِ على الزنَادِ الأَجْذَمِ (٣)

فقد شبه قرارات الروضة وحفرها بالدرهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب
المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب
في حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين بقدح النار من عودين
أوزندين فلا تقتدح ، فيستمر في قدحه لا يفر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التي تلقانا في شعرهم نجد الاستعارة بفرعها من
التصريحية والمكنية ، وهي مبثوثة في أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس
ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس
تصويره طول الليل وفتوره وبطنه ببعير جاثم لايريم ، إذ يقول في معلقته مخاطباً الليل :
فقلتُ له لما تمطى بضُلمِهِ وأردف أعجازاً وناءً بكَلكَلِ (٤)
وأُنشد ابن المعتز في كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن
حَجَر :

وإني امرؤٌ أعددتُ للحرب بعدما رأيتُ لها ناباً من الشرِّ أعَصلاً (٥)
وقول علقمة بن عبدة :

بل كلُّ قومٍ وإن عزَّوا وإن كرموا عَرِيفُهُمُ بَأَثَانِي الشرِّ مَرَجُومٌ (٦)

(٤) الكلكل : الصدر .

(٥) الأعصل : المعوج في صلابه .

(٦) العريف : الرئيس ، والأثا في : الحجارة التي تنصب عليها القدر ، استعارها لنواب الدهر .

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهل للسقا

ص ٣٧١ .

(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ،
وشبه الحديقة بالدرهم في استدارته .

(٣) الأجدم : مقطوع اليدين .

وقول طُفَيْلِ الغَدَوِيِّ في وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوقِ ناجيةٍ يُقتاتُ شَحْمَ سَنامِها الرَّخْلُ^(١)

وقول الحارث بنِ حِلْزَةَ اليشكري :

حتى إذا التفَعَ الطُّبَاءُ بِأَطْ رافِ الظَّلَالِ وَقَلْنِ في الكُنْيسِ^(٢)

وفي شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات في دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التي شاعت في الشعر العباسي وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول في الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس في وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكرٌ مِقرٌ مُقبِلٌ مُدبِرٌ معاً كجلمودِ صَخْرِ حِطَّةِ السَّيْلِ من عِلِّ
كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزلِ^(٣)

والطباق واضح في البيت الأول ومثله الجناس في البيت الثاني . وقد أنشد المفضل الضبي لعبد الله بن سلمة الغامدي قصيدة كَثُرَ في آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكأننا بإزاء شاعر عباسي من شعراء البديع ، يقول عبد الله^(٤) :

ولقد أصحابٌ صاحباً ذا مَأَقَةٍ بصحابِ مُطَّلِعِ الأذىِ نِقْرِيْسِ^(٥)

ولقد أزاحمُ ذا الشَّدَاةِ بِمَزْحَمِ صَعْبِ البِدَاهَةِ ذى شَدَاوَشْرِيْسِ^(٦)

(١) الكور : الرجل ، ناجية : ناقة سريعة .

(٢) التفعت الطباء بالظلال : دخلت فيها وأكنت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهي نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهي حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية في أصل شجرة لتستر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر في سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له في استعماله ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشداة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداهة : شديد المفاجأة . والشذا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أداوى داء كلِّ مُعَبِّدٍ بِعَيْنِيَّةٍ غَدَبَتْ عَلَى التُّطَيْسِ (١)
 فقد جانس في البيت الأول بين أصحاب وصاحبها وصحاب، وجانس في البيت
 الثاني بين أزاحم وبمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس، وجانس
 في البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلي يُعْنَى بِهَا حَتَّى يُؤَثِّرَ فِي نَفُوسِ سَامِعِيهِ
 وَيُخَلِّبُ أَلْبَابَهُمْ ، وَهِيَ تَصُورُ مَدَى مَا كَانَ يُوَدِّعُهُ قَصِيدَتَهُ مِنْ جُهْدِ فَنِي ، وَخَاصَّةً
 مِنْ حَيْثُ التَّصْوِيرِ وَدَقَّتِهِ وَبِرَاعَتِهِ ، فَقَدْ كَانَ مَا يَزَالُ يَجْهَدُ خِيَالَهُ حَتَّى يَأْتِيَ فِيهِ
 بِالنَّادِرِ الطَّرِيفِ .

النطيس كالنطاسى : الطبيب الماهر .

(١) المعبد : البعير الأجرى ، أراد به
 الشرير . العنية : من أدوية الحرب .